

أموالهم حق ﴿واجب ومستحب للساائل والمحروم﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم<sup>(٤)</sup>.

﴿٢٠ - ٢٣﴾ وفي الأرض آيات للموقنين \* وفي أنفسكم أفلا تبصرون \* وفي السماء رزقكم وما توعدون \* فورب السماء والأرض إنه تعالى - داعياً عباده إلى التفكير والاعتبار -: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد<sup>(٥)</sup> الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والديني، ﴿وما توعدون﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهاً يتنبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا] وهو النطق، فقال: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت<sup>(٦)</sup>.

﴿٢٤ - ٣٧﴾ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه

الوجوه، ولما نهي عنه، بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى بالشكر [الله] عليها والاعتقاد.

والمعنى الأول الصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿محسنين﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، ولإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان<sup>(٧)</sup>، وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة وغير المملوكة<sup>(٨)</sup>، ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواضع القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كانوا﴾ أي: المحسنون ﴿قليلاً من الليل ما يهجمون﴾ أي: كان هجمهم أي: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع، ﴿وبالأسحار﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هم يستغفرون﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ ﴿وفي



ذلك الجزاء: ﴿إن المتقين﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دنارهم، ﴿في جنات﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يحظر على قلوب العباد<sup>(٩)</sup>، ﴿وعيون﴾ سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً، ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قربت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانسراح الصدر، متقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل

(١) في ب: قلب بشر.

(٢) في ب: من وجوه البر.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

(٤) في ب: والذين لا يألونهم.

(٥) في ب: أن الله واحدٌ أحدٌ.

(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتركم الشك في البعث والجزاء.

### فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم<sup>(٣)</sup>، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي<sup>(٤)</sup> وأمه، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام<sup>(٥)</sup>، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: «أنكرتكم» [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قريزى أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فثُمَّ مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا حكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر<sup>(١)</sup> أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسؤمة عند ربك للمسرفين﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه<sup>(٢)</sup>، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون \* فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين \* فقربه إليهم قال ألا تأكلون \* فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم \* فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم \* قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم \* قال فما خطبكم أيها المرسلون \* قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين \* لنرسل عليهم حجارة من طين \* مسومة عند ربك للمسرفين \* فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين \* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين \* وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاوزه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ مجيباً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل، ف ﴿قالوا ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة ﴿حين رأى أيديهم لا تصل إليه﴾، ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٤) أمر الله محمداً وأمه.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

كالرميم ﴿أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على اكتمال قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم عن عصاه.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين \* فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون \* فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين﴾ أي: ﴿وفي ثمود﴾ آية عظيمة، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزدتهم ذلك إلا عتوا ونفروا.

فقيل ﴿لهم تمتعوا حتى حين \* فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وهم ينظرون﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصرين﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء النهمر، فأغرقهم الله تعالى ﴿عن آخرهم﴾، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستة فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾ ﴿والسما بنيناها بأبيد وإننا لالموسعون \* والأرض فرشناها فنعم الماهدون \* ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون \* ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين \* ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿والسما بنيناها﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿بأبيد﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

المعهودة. إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسليطان مبين \* فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئيه بسلايات السينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى<sup>(٦)</sup> بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿بركنه﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدم فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحر أو مجنون﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما إن يكون ساحراً وما أتى به شعبذة<sup>(٧)</sup> ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ الآية، ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم﴾ أي: مذنب طاغ، عاث على الله، فأخذ الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم \* ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ أي: ﴿وفي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة<sup>(٨)</sup> ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته

من ضيف الضيفان.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: ﴿تفضلوا، أو اثوثوا إليه﴾ لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿ألا تأكلون﴾ ولم يقل: ﴿كلوا﴾ ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلون﴾ فيبني للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالخال، كقوله لأضيافه: ﴿ألا تأكلون﴾ أو: ﴿ألا تفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا﴾، ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان<sup>(٥)</sup> لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم ﴿لما خافهم﴾: ﴿لا تخف﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير

(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.

(٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: من أحد.

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴿وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم .

﴿٥٤ - ٥٥﴾ **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾** يقول تعالى أمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: **﴿فتول عنهم﴾** أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك .

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به .

**﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾** والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول<sup>(٣)</sup>، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وغمام التذكير، أن يذكر ما في المأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار .

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو<sup>(٤)</sup> معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيُذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع .

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: **﴿فذكر إن نفعت الذكرى \* سيذكر من يخشى \* ويتجنبها**

المراد<sup>(٥)</sup> والمطلوب .

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاهرة، وفي الرجوع إليه أنواع المنحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز، فيفتر العبد من قضاته وقدره إلى قضاته وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، **﴿إني لكم منه نذير مبين﴾** أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، **﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾** هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة .

﴿٥٢ - ٥٣﴾ **﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾** يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون .

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولكن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: **﴿أم هم قوم طاغون﴾** تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال**

**﴿وإنا لموسعون﴾** لأرجانها وأنجانها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادتنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها .

فسبحان من عم بجلوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، **﴿والأرض فرشناها﴾** أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان القراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: **﴿فنعلم الماهدون﴾** الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه، **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾** [أي: صنفين]، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، **﴿لعلكم تذكرون﴾** [لنعلم الله التي أنعم بها عليكم]<sup>(٦)</sup> في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع .

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم .

(٢) في ب: غاية المراد .

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله .

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما .

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأرحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمته التي لا يقدر العباد لها على غَد ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب<sup>(٤)</sup>، أنزله الله محتورياً على نبي الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رُق﴾ أي: ورق ﴿منشور﴾ أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم]، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمتاً، أن يقسم الله به، ويبين من عظمتها ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنازلها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴿أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا<sup>(٣)</sup> محمداً ﷺ من العذاب والنكال﴾ ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستعجلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيب لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

### تفسير سورة الطور، مكية

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور﴾ وكتاب مسطور ﴿في رُق منشور﴾ والبيت المعمور ﴿والسقف المرفوع﴾ والبحر المسجور ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ ماله من دافع ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ وسير الجبال سيراً ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ الذين هم في خوض يلعبون ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواة عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتملة على الحكم الجليلة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

الأشقى﴾ وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦ - ٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، وذلك يتضمن<sup>(١)</sup> معرفته تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم الجبل، وعصفت بترابهم<sup>(٢)</sup> الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته

(٣) في ب: بتكذيبهم.

(٤) في ب: الكتب.

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٢) في ب: عصفت بهم.

وأن حجة الله قامت عليهم<sup>(٣)</sup>.  
**﴿اصولها﴾** أي: ادخلوا النار على وجه تحييط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم<sup>(٤)</sup>، وتطلع على أفئدتكم.

**﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾** أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست<sup>(٥)</sup> من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] **﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾**.

**﴿١٧ - ٢٠﴾** **﴿إن المتقين في جنات ونعيم \* فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* متكئين على سُرر مصفوفة وزوجناهم بحورٍ عين﴾** لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: **﴿إن المتقين﴾** لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتباب التواهي.

**﴿في جنات﴾** أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأنهار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة، **﴿ونعيم﴾** [وهذا] شامل لتنعيم القلب والروح والبدن، **﴿فاكهين بما آتاهم ربهم﴾** أي: معجبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

**﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾** أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويمجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: **﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾** فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

**﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾** يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون؟ أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف<sup>(٦)</sup> للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الخلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: **﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾**] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصرط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحراً أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنع عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تلتقى، ممتلئاً على عظمتها وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيد، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: **﴿إن عذاب ربك لواقع﴾** أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

**﴿ما له من دافع﴾** يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه<sup>(٧)</sup> العذاب، فقال: **﴿يوم تمور السماء موراً﴾** أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، **﴿وتسير الجبال سيرا﴾** أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفضاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! **﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾** والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: **﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾** أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلوهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصرط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المناذمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبتة لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه<sup>(٥)</sup>، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور: ﴿إننا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمنن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إننا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات<sup>(٦)</sup>، وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو الير الرحيم﴾ فمن بره بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩ - ٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر ترتبص به رب المنون ﴿قل تربصوا فإن معكم من المتربصين﴾ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون﴾ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴿

ولا تأثيم﴾ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قالوا ﴿إننا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ فمنن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴿إننا كنا من قبل ندعوه إنه هو الير الرحيم﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله [بهم] ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آياتهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما تورهم متورهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الذارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتب بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأممداهم﴾ أي: أممدا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفأكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهوب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأباه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: بما تشتهي أنفسكم، من [أصناف] المأكول والمشرب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهنتين بتلك المأكول والمشرب<sup>(٧)</sup> على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿مشكثين على سرور مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرور: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض<sup>(٨)</sup>، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكول والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور يدونهن<sup>(٩)</sup>، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش<sup>(١٠)</sup> شوقاً إليهن، ورغبة في وصلهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢٨ - ٢١﴾ ﴿والمدين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ وأممداهم بفأكهة ولحم مما يشتهون ﴿يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(١) في ب: متهنتين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاطفه بعضهم بعضاً.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.



استحالتهما، تعين [القسم الثالث] أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أم خلقوا السماوات والأرض﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء الله، وهذا أمر واضح جداً.

ولكن المكذبين ﴿لا يوقنون﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاؤون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمداً ﷺ، وكانهم الوكلاء المقوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

أثرت، وصدر منها ما صدر (٢). فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً، وأصدق الصدق (٣) وأحق الحق كذباً وباطلاً، لهنّ العقول التي ينزه المجانين عنها، أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع، فانطغيان ليس له حد (٤) يقف عليه، فلا يستغرب من الطاغية المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه.

﴿أم يقولون تقوله﴾ أي: تقول محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟ ﴿بل لا يؤمنون﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقرروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدرُوا على معارضته والإتيان بمثله، فحينئذ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم (٥). فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان

أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون \* أم لهم سلم يستمعون فيه فليات مستمعهم بسلطان مبين \* أم له البنات ولكم البنون \* أم تسألهم أجراً فهم من مفرم مشقون \* أم عندهم الغيب فهم يكتبون \* أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون \* أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون \* يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويبتدي بتذكيره الموقنون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به، فقال: ﴿فما أنت بنعمة ربك﴾ أي: منتهى لطفه، ﴿بكاهن﴾ أي: له ربي من الجن، يأتيه بأخبار بعض الغيوب، التي يضم إليها مئة كذبة، ﴿ولا مجنون﴾ فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلهم وأكملهم، وتارة ﴿يقولون﴾ فيه: إنه ﴿شاعر﴾ يقول الشعر، والذي جاء به شعر، والله يقول: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾.

﴿تتريص به ريب المنون﴾ أي: تنتظر به الموت (١)، فسيبطل أمره، [وتستريح منه]، ﴿قل﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تربصوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فإني معكم من التريصين﴾ تتريص بكم، أن يصيبكم الله بعداب من عنده، أو بأيدينا، ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبئس العقول والأحلام، التي أثرت ما

(١) كذا في ب، وفي أ: تتريص به الموت، وتنتظره فيه.

(٢) في ب: التي هذه تانجها، وهذه ثمراتها.

(٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.

(٤) كذا في ب، وفي أ: لا حد له.

(٥) في ب: أن يوجد أحد نفسه.

إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يَبَيِّنْ الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم<sup>(٣)</sup>، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أم لهم إله غير الله﴾ أي: أنهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟ ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصَلَّ له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المالك للمعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحباً مرموماً \* فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون \* يوم لا يفني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب يقولوا سحباً مرموماً \* أي: هذا سحب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دراهم لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره<sup>(٣)</sup> عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أم له البنات﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أم تسألهم﴾ يا أيها الرسول ﴿أجراً﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مفرغ مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الخريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك] ودعوتك، وتعطي المؤلفقة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يُطْلِعْ عليه أحداً من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أم يريدون﴾ بقدهم فيك وفيما جتتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالدِّين كُفْرُوا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرتهم عائدة



﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أم هم المصيطرون﴾ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالظهور والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه﴾ أي: أنهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملا الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فليأت مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿بسلطان مبين﴾ وأتى له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحداً]<sup>(١)</sup> إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعدته، ووعيدته، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعتاد، فأئى المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

تفسير سورة النجم  
[وهي] مكية

يصمقون ﴿ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿ولا هم ينصرون﴾

﴿٤٧- ٤٩﴾ ﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة<sup>(١)</sup>، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسيي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

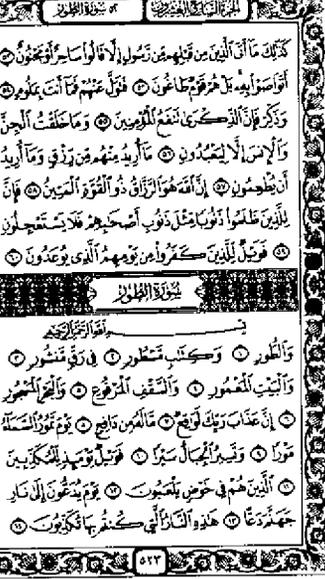
ولما بين تعالى الحجاج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبا بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القُدري والشرعي بلزومه والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿فإنك بأعيننا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور والحمد لله

﴿١٨- ١٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والنجم إذا هوى﴾ ما ضل صاحبكم وما هوى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿علمه شديد القوى﴾ ذو مرة فاستوى ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ ثم دنا فتدلى ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أفتمارونه على ما يرى ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ عند سدرة المنتهى ﴿عندها جنة المأوى﴾ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴿يقسم تعالى بالنجم عند هويته أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من السوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، وكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغني في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً، حسن القصد، ناصحاً للأمة<sup>(٢)</sup>، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد<sup>(٣)</sup>، وقال ﴿صاحبكم﴾ لينبئهم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره، ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه، ﴿إن هو



إلا وحي يوحى﴾ أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى، ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام]، أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿علمه [شديد القوى]﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام، ﴿شديد القوى﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوجهه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿ذو مرة﴾ أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فاستوى﴾ جبريل عليه السلام

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب...

(٢) في ب: للخلق.

(٣) في ب: وسوء.